الفيضان

قصة بقلم حيدر حيدر

الى ممدوح عدوان

ـ ١ ـ

بالامس مات عبدالله بن انس . هوى دون ان ينبس بكلمة تماما كما تهوي ذرة غبار فوق اديم الارض . لم يكن الحادث مفاجئا ولا محزنا ، فالذين شاهدوه وهو ملقى ، اعتقدوا انه متعب او مخمور . وهو نفسه لم يجد الوقت الكافي للحزن . لقد انتهى امر تافه كما يقولون ، لكن الحكاية بكل ما فيها من مرارة لم تنس .

وعبدالله بن انس الذي مات الان وفي جميع الازمنة الماضية ، رجل من عامة الناس . ولد فقيرا وعاش فقيرا ومات فوق الارض دون ان يعرف له قبر .

كان يحب الموسيقى والمطر والحرية ويهوى المشي والصمت ، تكنه كان يعرف الظاهر والباطن وفي هذه المعرفة كان يكمن سر حياتهوموته.

في صباح يوم قائظ طعن عبدالله اباه بفاس حادة في صدغه فقتله ، ثم فر من بيته ولم يعد .

وذات صيف فكر بالزواج فتزوج ، لكن المرأة التي عرفت فيه قاتلا يحب الموسيقى والتسكع ، خانته يوما فطلقها في الشتاء وهام على وجهه تحت المطر .

قال له ابوه : تقتلني يوما لانك تشك انك لست من صلبي ومن ثم تقتل الناس وتموت وحيدا .

يومها كان طفلا ، فلم يصدق نبوة الاب الخرافية . لم يكن عبدالله بن انس يكره احدا وكانت فكرته عن الحياة انها مفعمة بالغبطة ، وان الانسان يولد ليفرح .

الان قتله ومضى . كان ذلك بداية الصدمة .

وتحت المطر كان يسمع الموسيقى . موسيقى قادمة من طرف بعيد منسي . من وطن الاهتزازات الاولى لعالم ما قبل الخيانة والقتل .

كانت نبضات الموسيقى تفتح ابواب ذلك الوطن الاخضر . لقد حرره القتل والطلاق وها هو يخلع البرداء القديم ويتقدم فوق الدروب عاريا وحيدا في ليل بلا نجم .

وقبل ان يطعنه قال الاب : « بين الظاهر والباطن صراط كالشعرة ولا بد ان تكون حذرا وانت تعبر » . واذ سأله ما معنى الحذر قال له : « انبحر الذي تراه بحران. بحر تسبح فيه وبحر تعاد فيه . كن حذرا من وجه البحر الاخر » .

بين المطر والموسيقى والسير من مدينة الى اخرى ، كانتالدنيا تضاء في باطن عبدالله بن انس . اكوان غريبة ملونة وجديدة كالغابات تمتد وتفتح كانما الان يولد ويبدأ النطق .

ها هو ذا يبدأ خطواته الاولى فوق درب وعر ، مغيرا خطوط السير باتجاه ممنوع .

ـ قف ! من انت ؟

ـ أنا احمد هلال العوض الشوباش ولدتعاريا وسقطت في صحن من النحاس بين الدم والبلغم « وبقايا شهوة ابي » واريد ان استمر عاريا حتى اموت ولكن بلا دم ولا بلغم ولا شهوة منذ هذا اليوم .

ـ لا ، انت عبدالله بن انس !

دجّنوا طفولتهوغيروا اسمهالاصليوالبسوه ثيابا ثم زوجوه وتلوا على مسمعه ايات من القرآن ، وفي المدرسة علموه كيفيطيع اولي الامر.

وفي الازمنة الداجنة ، ازمنة الظاهر ، عاش عبدالله بن انس كما تعيش هذه المخلوقات . نسي طفولته واسمه الاول واعتاد ارتداء الثياب وارتضى أن يتزوج . صلى وصام وسجد وعمل موظفا طيبا وكان له أصدقاء وانخرط في تنظيمات سرية . لقد كان داجنا كما ينبغي .

الان سقط الحجاب الى الابد بين الظاهر والباطن ،بين عبدالله بن انس واحمد العوض الشوباش .

لقد بدأت الحرب .

ـ ٢ ـ

انه الان في طريقه الى القبيلة ، ناسيا المدن ومؤسسات العمل واشارات المرور والخوف والحب وكل علامات الزمن القديم . ثم هذ الغريب الذي صار عبدالله بن انس .

في الطريق يلقاه صديق قديم . يوقفه . يسأله عن حياته ثم يسرد له بعض الذكريات القديمة : معا رعينا الغنم في الطفولة ثم دخلنا المدرسة . ومعا قابلنا الشرطة بالحجارة وخشب المدافىء . لماذا تتشرد هكذا كالمتسولين في بلادك الجميلة ؟

ويستمر الصديق القديمفي حديثه عن ازمنة الود القديم .الازمنة التي سماها أزمنة الحرارة والامل . كان يتحدث واحمد لا يسمعه كما لم يبد عليه انه قد عرفه . وسأله الصديق القديم : هل عرفتني جيدا يا عبدالله ؟

ونظر اليه بأستغراب : انت مخطىء يا سيدي . انا اسمي احمد الهلال العوض الشوباش . احب المطر والموسيقى والتسكع والحرب.

هل انت من ابناء الحرب ؟

ـ الحرب ؟

حاول ان يقترب منه وامسك بكتفه وقال بدهشة :

ـ ولكن ما الذي حدث لك ؟

لكنه افلت منه : دعني انا لا اعرفك . انت لست من ابناءالحرب. وانا احمد العوض الشوباش وانت لا تعرفني . ولدت سفاحا وقتلت ابي وسأموت وحيدا منفيا في ارض عراء . وهذه ليست بلادي . غادره ومضى .

قبل ان يصل القبيلة كان عليه انهاء بعض المهام المتعلقة بالماضي .

لقد قتله وكان هذا عملا مهما، وبقتله كسر حلقة من حلقات الخوف والتدجين ، ثم هجر زوجته فكسر حلقة اخرى . وها هو يقطع صلاته مع الاصدقاء القدامى . لكن السلسلة ما تزال طويلة ، واذا لم تكسر كل الحلقات فلن يكون بمقدوره اجتياز الصحراء والوصول الى المضارب .

على الموسيقى والهجرات والمطر ان تستمر . وحدها حجاب الماضي ، ووحدها القادرة على فتح الابواب الجديدة ، الابواب التي ارتجت منذ الطفولة . مدارات بينها حواجز ، كانت فيما مضى مدلاة من سماوات بعيدة سترت الطفولة والحب والحرية والموت . وعلى هذه الالواح كتب متى تولد ومتى تدخل المدرسة وكيف تحب اباك وامك واخوتك وزوجتك ومتى تنام ثم متى تموت .

وولد احمد العوض الشوباش ثم سمي عبدالله بن انس ثم كان له اب ثم تزوج ثم اخذ الى المسجد ثم وظفوه . ثم هزم في الحرب .

ـ بين الظاهر والباطن شعرة كالصراط . والبحر بحران .وفي سنوات الصمت والتلاؤم مع العالم (قال الاب اكثر من ذلك ، قال) : للقرآن تفسيران وللمراة وجهان والانسان مرة نبي ومرة مخبر . وقد يلتبس عليك الامر يوما وانت تعبر الصراط لكنك في المظهر ستكتشف نفسك .

ولما سال عن الوجه السري للاشياء قال له : بعد ان تطعنني تكتشف السر في دمي المراق .

ولما قتله خرج من البيت والوظيفة والمسجد والمدرسة ومن زوجته واصدقائه وطاعة اولي الامر ، وبدات الالواح تتساقط كنيازك نحو قاع ارض مهجورة ، وانبثقت موسيقى مع ايقاعات مطر وحشي اخضر ،راحت تتوغل داخل غابات بدائية جديدة ، وسمع صوت القبيلة تنادي من مروج الدم ، وطلعت زهور وروائح والوان لا عهد بها ثم ما لبثالعالم ان توهج باطياف وبحار وشجر كانت فيما مضى نائية منسية ، واحس احمد الهلال العوض الشوباش انه يسقط الان من الرحم فوق مرج من عشب مغسولا بالمطر والضوء والموسيقى .

ـ ٣ ـ

من مكان الى مكان عابرا ارض الوطن . عاريا تحت الشمس والامطار والرياح . خارجا من الظاهر الى الباطن على ادراجالموسيقى والطفولة باتجاه صحراء القبيلة . والطريق طويلة وشاقة . وان تقطع حبل السرة بينك وبين الماضي ، ان تنفذ من خلية الزمن الحاضر الى ابراج المستقبل ، مدركا ما كان مطلا على ما سيكون ، ليس المعجزة. الذي يشبه المعجزة ان تستمر في هذا التقدم على خط الصراط دون ان تسقط .

كل شيء يبدو مثقلا بالنذالة . العناصر تلوثت . الماء والهواء والنار والعشب والحليب . درب طويل متعرج . زرع على اطرافه وفي وسطه اللصوص والخونة والاميون والحمقى والمخبرون والقتلة والقوادون . مضيق من الموت والآلام .وانت على خط الصراط تترنح لكنك تسير . عيناك مفتوحتان وقلبك ينبض والطريق طويلة وشاقة ومعك سر الحياة والموت . السر الذي اكتشفته في الدم الملوث . كتلك ستصل الى اقاصي الصحراء يوما ، وستسالك القبيلة عنهم وانت تعرف الظاهر والباطن.تعرف الاب الكاذب وبنيه وتعرف اصدقاءك وامراتك وجميع من خانوك . ولا بد ان تقود القبيلة كبدوي يتقن معرفة الاثر . ستعرف الاثر من خطواتهم الهاربة وخطوات الجمال التي حملوها الذهب والعشيقات والوثائق السرية .

سيكون هناك فزع كبير وشفاعة . دوي وصرخات . الاباء يحتمون بالابناء . النساء يمزقن اثواب الحرير والذهب ويقطعن الجدائل . الذين سفكوا الدماء البريئة وشربوها انخابا في قصورهم وثكناتهم سيقابلون عدالة موتهم وهم يصرخون بالتوبة والغفران ، لكن المحاكمة ستنتهي كلمح البصر دونما شفقة وباقل ما يمكن من الضجيج. ثم تنشني القبيلة عابرة صحراء المنفى لتقابل موتا اخر . تقابله بروح الاسلاف التي لم تقهر يوما .

عندما استيقظ كان المساء يهبط على المدينة . كان قد سار طويلا . وتذكر بانه اراد ان يقول الاشياء على ناصية الشارع بين الناس .

ـ لماذا انت هنا ؟ الارصفة للمارة . هيا معي .

ويقتاده رجل غريب ملامحه قاسية . يدخله مكانا رطبا موحشا ثم يقذف به نحو غرفة مظلمة ويوصد الباب عليه. في الصمت المظلم .

ـ ٤ ـ

ـ اين انا الان ؟

ورغب ان ينام وان يحلم وما كان كئيبا . كانت المدينة راسخة فوقه . وتنامت الى سمعه اصوات ممزوجة بالالم والرعب والجنون. كانت تاتيه مع كثافة الروائح . كان ذلك يشبه ضجيج البحر . ونفذت الرائحة والاصوات مخترقة مسام الجلد ، ثم حملته خارجة به نحو عوالم قديمة . ورأى سهولا خضراء وسواحل بحار غارقة في شفق الغروب الهادىء . على الشواطىء توزع فتية عراة يعبثون بالرمل، يفتحون حفرا ويقيمون تماثيل من القصب والرمال.ثم يثبون كالارانب فوق الشواطىء البراقة . بينما تمدد الاخرون فوق الرمل الحار يمتصون الاشعة ويحلمون بفتيات عرايا نضرات اجسادهن كالماس. وعلى مسافة كانت هناك جزيرة امتدت كالتمساح فوق سطح البحر.

قال احد الفتية : لماذا لا نبني طوفا من القصب نعبر به البحر الى الجزيرة ؟

وعقب اخر : يقال ان الجزيرةمليئة بجنيات البحر .

واشتعلت حماسة الفتيان فبنوا طوفا ثم دفعوه نحو الماء وتعلقوا باطرافه يغنون . كانت الجزيرة على مرمى البصر وكانوا يبحرون نحوها بنشوة وفي عرض البحر ضحكوا وتراشقوا وتحدثوا بكلمات ماجنة وساخرة عن الفتيات وصخور البحر والحيتان واقراش الماء واعشاب البحر التي تلتف حول الجسم وتغدره .

قال احدهم : في بحارنا لا توجد كلاب بحر ولا اقراش ولا دلافين . اساطير قديمة رواها الاباء والاجداد جهلا وخوفا .

كانوا حول الطوف القصبي والطوف مبحر ، والجزيرة هناك ناتئة غريبة صلبة ، وهم يهزجون ويثرثرون ، بينما استوى البحر ساجيا ملقى كجسد امراة جميلة عصية على الاخذ . لقد اوغلوا داخل البحر وتحتهم امتدت الاعماق لامعة مضاءة ، رهيبة كملايين النصال المفتوحة .

كانوا الان وحيدين داخل البحر ، تحفهم المياه من كل الاتجاهات، فوقهم سماء فسيحة تصطلي بوهج الشمس وامامهم المدىالعاري والبحر.

قال فتى : البحر مخيف .

وقال آخر : البحر غدار .

وقال آخر : لقد اوغلنا كثيرا والشاطىء بعيد .

ـ ها نحن وحدنا في عرض البحر .

واحتواهم البحر . كانوا الان على عرشه يطفون . ولاحت في الافق غيوم . بدت على شكل هضبات كامدة وراحت تتحول طيورا ضخمة تارة وتارة تماسيح . اشكال غريبة اسطورية لا علاقة لها بذرات البخار الصاعدة والمتكاثفة . وانتبهوا . خط ملتو كالجرح امتد بين الغيوم ما لبث أن اختفى . اعقبه صوت هز اركان السماء واختلج منه الماء . لقد جاءهم البحر والرعد وذلك الافق الكابي . وفجاة تحولت الافراح الطفولية والبراهقة عن جنيات الجزيرة والصخور المرجانية واللآلىء والاسفنج والعري والشمس ولون البحار ، الى اختلاج داخلي منقسم على نفسه ، ومتباعد ، اختلاج امتلأ بالوهن والذعر والايمان المباغت بالاقدار . الموت والنجاة يرقصان بحياد طبيعي على حد الموج المرهف كنصل السكين . وهدر البحر بصوته الوحشي الداوي . وبضراوته التي لا ترحم ضرب الموج طوف القصب وعمق هزيم الرعد ، وخلف هضاب الامواج المتلاحقة بدت سهب وتلال متقدمة كانما حركتها ملايين الجن المذعورة التي كانت راقدة قبل لحظات في كهوف البحر الداخلية .

فوق الشاطىء كانت الشمس في سمائها مضيئة حادة ، بينما راح انفيم في الغرب يتقدم متراكما في لون الجبال الرمادية ، وندت صيحة جارحة جاءها الموت في غلاف موجة قطعت الصيحة ثم اختفى الفتى ، وتبع ذلك صيحات . كان الفتيان يصعدون الربى ، مقذوفين بقوة اندفاع الموج كطيور مهيضة ثم لا يلبثون ان يغوروا . كان البحر والموج اقوى منهم . لقد اخذوا على حين غرة . كم بدوا صغارا في هذا الاعصار المباغت . وكم كان واضحا حمق حماستهم والبحر يتخطفهم ويضرب باجسادهم قاعه الرملي الناعم ثم يرقدهم هناك بلا حركة .

كان صعبا ان يسمع احد صوت احد ، وكانت المسافات قريبة ثم تباعدت .

لقد بدأ الانفصال والتوحد على سطح الغمر الفجائي فوق هذه الصحراء . هوى من هوى وحيدا خفيفا . غاص ثم طفا ثم غاص ثم استلقى بلا صرخة فوق الرمل .

كانا الان معا ينسحبان بين الفزع والموت والوحدة والظمأ .

وقال له : كم انا عطش . وكان الماء تحتهما وامامهما سرابا براقا ملحا .

وسأل : اليس ذاك هو الماء ؟

واجابه : عليك ان تصبر ، سنصل الشاطىء .

وقال له : سأموت .

ولم يكن الموت بعيدا . شاهداه في العيون التي جحظت ثم شعت رعبا ونارا ودما ثم انفجرت . دخل من الفم والخاصرة واليدين والنحر والفقرات ثم استقر هناك . كان الموت في البرق والفضاء والبحر والزبد والاصوات المسموعة والخفية وقال الذي في حلقه عطش كثير : انني اموت .

بدأ الان يسحبه خارج مدار الموت . ناجيا بنفسه وبه . اللذان بقيا ونجوا باعجوبة ها هما يقتربان من الشاطىء والشمس .

وقال عبدالله : قل لنفسك لن اموت مرة ومرة ومرة . لست اكثر مني ظمأ .

كان عبدالله يحمله على ظهره مترنحا تحت وطأة جسده .

ـ نحن وحدنا ؟ سأل رفيقه .

واقترب نورس فاتحا منقاره وانقض عليهما فهويا لاصقين بالرمل ، وغطاه عبدالله بجسمه فمزق النورس فوقهما ثم ابتعد . انهضه ثم مسح الرمل عن وجهه وجسده وتابعا .

ـ هذه الشمس اللعينة لو تغيب (قال عبدالله في نفسه) .

كانا الان بعيدين عن الدوي وصياح النوارس ، لكنهما كانا قريبين جدا من هذه الاشعة الوضاءة التي تخترق كل مسامهما .

وقال اليائس من الحياة : هل ننجو ؟

ورد عبدالله : استعن بالذي يستعان به .

ـ لم يبق في الجسد ما يعين .

ـ قل لنفسك انني قوي . النفس تؤازر الجسد في اوقات الضيق .

بغتة امحى البحر كومضة نيزك في كابوس طويل ابتلع في جوفه مدنا واطفالا ومسرات والاما . سلالة كان الموت ينمو فيها ويزهر اجتاحها البحر بغضبه المفاجيء ، ثم جاءت الصحراء بكل وهجها فبدت امتدادا كابوسيا اخر .

بحر آخر من الرمال كانا يجران اقدامهما فوقه .

ـ خل جسدك في ظلي .

وخلع عبدالله قميصه ونشره فوق رأس رفيقه ليحميه من الاشعة . وقال المتعب :

ـ لكن الارض تنبت نارا .

وبان على وجهه مكثفا أقصى ما يمكن لبشري ان يعاني من عذاب . وتساءل عبدالله : من يكون في هذا الوقت الحزين ؟ في هذه النقطة من الزمن الرجراج . حيث الماضي والحاضر والمستقبل ذرة راقصة في مسارب سموم ، ذرة مفصولة تتدحرج بسرعة جنونية على سفح هذا الاعصار .

كانت النيازك ما تزال تتساقط فوق شبكية الذاكرة .

وتذكر كيف احرق هويته فوق مرج من العشب الخضل . كان يتأمل النار وهي تتقدم على اطراف البطاقة الخضراء . كانت النار كزهور برتقالية تمحو الكلمات وتلفح الصورة الملصقة . لا بد ان لون صورته الملفوحة آنذاك يشبهه الان . لقد بدت البقعة المحروقة بعد الترمد ككدمة في جلد غض . تلك الكدمة الشبيهة بالوشم البدائي حررته . أحس بانها اورثته غبطة داخلية . ردت اليه اسمه الحقيقي الذي استلب منه: احمد الهلال العوض الشوباش .

يومذاك وثب في الفضاء وراح يردد اسمه . لقد اصابته نوبة من الفرح والحزن والبكاء والضحك . سلسلة اخرى انكسرت . وشعر بعطش شديد فاشترى خمرا وجرى نحو البراري . جلس في ظل شجرة وحيدة وبدأ يشرب ويغني ويسقي جذع الشجرة حتى ثمل ونام .

ـ ٥ ـ

رمل يفضي الى رمل وشمس تنفث نارا . فراغ مضيء يكاد يعمي البصر . امامهما وخلفهما الصحراء والوقت ضحى . وقال احمد لنفسه: لقد سقط شيء قديم تحت هذه الشمس المتوهجة . سقط في الاعماق المظلمة من البحر وصار الى طحلب .

انه الان في منفاه . قطع حبل السرة وانزلق على صدر النوء . لا يختلف كثيرا عن هذه الوحوش التي تجتاز هذا التيه الحاد والتي تبحث عن حياتها بين جثث مزقت كالخرق وانتشرت روائحها على مدى الصحراء . كانت الوحوش تنهش تلك الرمم وهي تجرها نحو اوكارها . جثث آدمية عارية تفسخت تحت القيظ على حافة حفر لا تشبه القبور . كانت هنا محروقة نائمة بعضها بلا اذرع وبعضها بلا رؤوس وبعضها جوفت جماجمها وعيونها الصقور .

ليست حزينة ولا فرحة . فقط بدت هادئة ومستسلمة لاغفاءة طويلة .

وشعر احمد بموجة من الغثيان تصعد في صدره وبدأ الاخر يرتعش فجاة صاح مشيرا الى الذئاب والجثث : عبدالله . الموت . الموت . ثم هوى فوق الرمل . وجثا قربه . وضع رأسه على فخذه ومد اصابعه الى وجهه وصدره يمسح ويضغط عليهما ، وعبرت نسمة لافحة حملت معها روائح الجسد فاندفع القيء من حلقه . سائل حار اصفر لزج ممزوج بالملح والرمل . وتدافع القيء من الصدر الذي راح يختلج بضربات متواترة . وخيل اليه ان الاخر على وشك الاحتضار وهو يدفع بامعائه ويئن انينا حيوانيا لا صلة له لا بالبشر ولا بالحياة : دعني . سأموت .

— ٦ —

صاحت المرأة فزعة : ما الذي تفعله ؟

وقال : اقصد دمك لتتآخى .

قالت المرأة : ولماذا تقصد السرة ؟

وقال : من هنا بدأت حياتنا الاولى ومن هنا تنتهي .

وبشفرة حادة قطع السرة بصليبين فانبثق الدم . غمس شفتيه بالدم وقبل المرأة طابعا على شفتيها دمها : انت صديقة الان .

بدت المرأة بكاء حارقا وتشبثت به . قالت : هل تحقق لي رغبة ؟ وسألها عن رغبتها فقالت : ان تنام معي .

وبين البكاء والنوم اضطجعا . كان جسدها يتنفس بهدوء وشبق واستسلام ، بينما بدت الاشياء ، كل الاشياء : الجدران وجسداهما والسرير والاردان وبيابها الخارجية والداخلية المتعانقة في صمت جنسي والوقت الشبيه بقنبلة حل صمام امانها ، بدت كلها خارجة من مدارها وحجومها وشيئيتها ، داخله في هذا الدوار الوحشي اللذيذ الشبيه برائحة عذبة ، عذبة ، اثيرية وشفافة . رائحة ستقتل في حتام لحظة حاطفة متواشجة مع ضربة التسفرة في لحم السرة ، اللحظة التي سيخرج فيها الوعي من بوابته المغلقة مبعثرا راكضا نحو جميع الاتجاهات معيدا كالموج تشكيل ذراته التي تبددت فوق الشاطيء . لعلها انت . او هو جاءها . اللحظة التي يخطف بريقها الابصار . والتي يحدث اثرها شيء حزين . مؤلم ، لا نستطيع دفعه : ذلك ما ينبغي ان يكون عندما تنتشر في الهواء رائحة كريهة .

ومرة اخرى اندفعت في نشيجها . كان صوتها يهز جسدها والسرير والجدران . امسكته وهو يخرج وقالت له شيئا لم يسمعه . كان العالم ما يزال يدوي ويلمع وفي مكان ما كانت زهور برية تنبض وهي تحاول الخروج من تجاويف الارض الصماء .

في الخمارة كانوا هناك يصخبون ويرقصون ويثرثرون ، وامرأة تغني مطلع اغنية :

« في اول المساء حبيبي حار كالشمس
ودود كالحمل
جسد حبيبي يطويني كبحر في اول المساء
وفي الفجر يرميني كطوف حطمه النوء
آه . حبيبي قاس كوقت الحرب » .

شرب ورقص وثرثر وغنى ، وفي اواخر المساء اكتأب . عندما اجتاز الشوارع رأى المدينة طافية مأخوذة بسكينة الظلمة . صوت البحر المطوق للمدينه كان يسمع وهو يضرب الابنية . صوت خافت يبدأ بالتنامي ثم الهدير ثم فجأة ينفجر على الجدران .

وفي طرقات المدينة طاف بالاماكن القديمة . البيوت والمقاهي والخمارات والحدائق . اطياف ملونة تتناثر على صفحة البحر ، تخرج من غشاوة عينيه شظايا لامعة وكامدة .

كانت المدينة بكل ضخامتها الفارغة تهوي الان بينما الموسيقى ترتفع . لما دهمه التعب والجوع والحزن استلقى على الارض ونام .

— ٧ —

ورأى انه يسير في مروج خضراء فسيحة . ورأى امرأة يعرفها . كانت هناك بعيدة .. بعيدة . فوق صخرة وقربها بحيرة زرقاء . بدت شبه مصلوبة ، ذراعاها مرفوعتان نحو السماء كانها تضرع . لم يكن يسمع صوتها . كان نصفها عاريا وحاول ان يسير اليها وبدت الاعشاب تحت قدميه غضة كثيفة تغطي هوات ، كان يسير كمن يعبر الهواء ببطء ولم تكن المسافة تتقلص ، وراح العشب يعلو حتى صار كالرماح ثم تحول الى قضبان مسننة . وفجأة انبثق وسط المروج لهب اصفر وازرق امتد منه لسان من نار لفح الجزء العاري من المرأة . ورأى النار ترعاها بهدوء ، واحس انه مشلول داخل المرج المحترق . وشعر بالظمأ ورأى البحيرة تجف ويغور ماؤها . وتوهج الفضاء بالتماعات بدت مزيجا من الدم والنار . على صفحة ذلك اللمعان الغريب ارتسمت اشباح طيور قبيحة . حيوانات نصفها بشر والنصف الاخر حشرات لزجة تشبه العناكب وسرطانات البحر ، اشجار متعانقة في اوضاع شبه جنسيه . سفن معلقة في الفضاء صواريها تقطر دما .

ورأى اطفالا عراة تطاردهم حشرات تتعلق بمؤخراتهم ورقابهم وتمتص دماءهم . كان الاطفال يصيحون باصوات غريبة مفزعة وسط الفضاء الملتهب . وظهر جسد ابيه خارجا من العشب محمولا في تابوت مفتوح وفي رأسه الشدخ العميق حيث تلقى الطعنة . وحاول ان يصيح ويهرب لكن ذراع الاب امتدت نحوه . كانت اصابع الاب قوية متشنجة . طوقه بحنو حزين وبكيا ، ورغب ان يعاتبه على ما فعل . وسارا معا . ورأى الاب خارج بابونه والطفل على صدره . كان صدر الاب حانيا دافئا وكانا يتجهان صوب البحر .

وقال الاب : هناك كانت طفولتك . لماذا ضيعتها ؟ وود لو يقول له: وانت لماذا ضيعتني ؟ لكنه سأله : أأنت حي لم تمت ؟ وبكيا مرة اخرى بحرقة شديدة وهما يعبران الارض الخضراء نحو البحر .

وتذكر المرأة التي تركها وسط النيران فرغب ان يعود . وقال الاب: اوصلك الى شاطيء البحر . هناك سفينة تنتظرك تركبها وتبحر . اياك ان تلتفت الى الوراء لئلا تتحول الى عمود ملح . معك لا تأخذ شيئا غير ذاكرتك . انت لا تؤمن بالله ، اعرف هذا ، لكن الله غاضب وسيجري نوءا وستكون هناك ايام قاسية . ستمتلىء الارض بالصراخ والفجائع . كل هذه السهول والوديان الخضراء تغرق بماء احمر وازرق. ستجيء اعوام مريرة . سنوات جوع ويتم وقتل وغربة . فلا يكون كهذا الا يوم الحشر . هذه لم تعد ارضك الان وهذا ليس زمانك . هيا . انظر لقد لاح البحر وتلك النقطة البعيدة هي السفين .

— ٨ —

كجريحين كانا يترنحان فوق الرمال الحارة . في الافق لم تلح آثار لبشر . كان الفضاء الحار يصدي بصمت هذه القفار الموحشة مختلطا بالجوع والتعب والظمأ .

وسأل الرجل الثاني : متى نصل ؟

وقال احمد الهلال : اوشكنا .

وقال الاخر : اشعر بالموت يمشي في دمي .

وقال احمد : هي ذي صخرة . تشجع لنصلها . الغروب يقترب .

وغاصت اقدامهما في الرمل . سقط الاخر : اتركني . انني اموت.

جاهد حتى نزع قدميه ، ثم انحنى فوق الرجل الملقى . كان قلبه ما يزال ينبض . رفعه قليلا ثم مد يده اليمنى بين فخذيه وباليسرى تناول يديه ، وكما يحمل الجريح في الحرب ، شاله عن الرمل ومدده فوق رقبته وظهره ، وتابع المسير منحنيا يغوص في الرمال ويتعثر ويكتوي .

كان نبض القلب خافتا . احسه فوق ظهره يختلج بوهن . كم بدا صعبا تركيز الافكار وحشدها في ذلك الوقت . ان شيئا متحركا يشبه الحجر او الكرة يعبر في فضاء ابيض . يعبره بقوة الريح او الاندفاع . ان طاقة الروح تتجلى الان بعد ان اصيبت الكتلة بخلل : النفس تؤازر الجسد في اوقات الضيق . كانت الصخرة تلوح قريبة بعيدة خلف سراب بدأ يهت مع ميلان الشمس نحو الغروب . كل الافكار والقوى الداخلية المشعة تندفع منجذبة نحو نقطة مغناطيسية واحدة لا تحيد عنها : الصخرة .

عندما وصلاها كانت الشمس تضرج الافق . انزله برفق وسحبه حتى اسنده الى ظهر الصخرة وتمدد قربه . وضع يده على صدره ومسح عرقه . بدا وجهه وكان الدم سحب منه . عينان مسبلتان جفناهما كورقتين ذابلتين سقطتا منذ زمن . ولم يكن ينقصه الا حفرة يمدده فيها ويختفي هذا الجسد المائل على حافة الموت . كان من الصعب معرفة ما اذا كان قد مات فعلا ام هو حي . ووضع سمعه على صدره . سمع

ترجيعا ضامرا يترنح في اعماق الصدر . وقال احمد الهلال يبدو انه ما زال حيا . ضغط على مهل قدميه وحرك ذراعيه ثم مسح صدغه وخلع قميصه وراح يرفرفه امام وجهه عل بعض الهواء يندفع نحو رئتيه .

غربت الشمس . وفوق امواج الرمال انتشرت ظلال رمادية . وخيم على الصحراء صمت . كانت الصحراء موحشة وكئيبة لكنها بدت ندية بعد ان انطفأت طبقة الهجير والاشعة المتراكمة فوق سطح الرمال .

فوق الكثبان كان الصمت يرى وهو يزحف زحف هذه الظلال الشاحبة . كان الصمت يسمع من خلال هذا الهدوء الجنائزي ومن هذا الصمت نفسه كان يخرج شيء رهيب جليل متوقع لا يمكن تسميته . ظلال الحياة والموت المتداخلة تموجت ثم تجمعت في حشرجة صعدت من صدر الرجل . فتح عينيه فرأى احمد الهلال العوض الشوباش جاثيا قربه يلوح بقميصه : اين ... انا ؟

ـ غابت الشمس . انت ما زلت حيا .

ـ ماء ... ماء .

ـ بعد قليل يهبط الندى .

اعلى الصخرة نشر احمد قميصه ليندى . وردد الرجل كلمة عطشان مرة اخرى . قال احمد عند منتصف الليل يندى القميص فتبل ريقك ووجهك . حاول ان تنام قليلا .

تمددا بهدوء فوق الرمل . كانت رطوبة الليل تتمخض على مهل من رحم قيظ النهار . وفجأة تخلخل المحيط السهبي بدوي عميق بعيد لم يسمعه الاخر الذي دخل محيط النوم .

وتساءل احمد : ما هذا ؟

كان رأسه ثقيلا رجراجا ، وفوق عينيه تدلت كتل رصاصية بدأت تهبط به نحو اعماق الظلام . وفي مكان ما من نفسه كانت قطرة مضيئة تسقط كلما حاول النوم . كانت القطرة توقع رنينا على سطح الروح ، فتظل بقعة مركزة في حالة صحو واضاءة بينما الاطراف تتشبح بفلالة النوم .

هناك كانت الصور والاصوات والحركات والروائح تشب وحشية حزينة متشابكة . كم بدا من الصعب تنقيتها والتركيز على اي منها . كالبرق كانت تومض وتنطفيء ، داخلة مداراتها خارجة منها كأنها نيازك تتشظى في سماء محترقة . كان محالا اعتقالها في مدار زمن محدد . تأتي وتختفي كفقاعات على سطح موج هادر لا تكاد ترتسم على سطح ذلك المحرق حتى تأتي موجة اخرى تلاشيها . وحدث نفسه : لا بد انني في حالة غير واعية . كيف ندرك هذا الذي حدث ؟

بهدوء كان يرقب النجوم والسماء المكرة . وتساءل اين يكمن الخطأ ؟

ومرة اخرى دوى انفجار هائل ، هز الارض والفضاء وانتفض الاخر مذعورا .

طوق عنق احمد : ها هم يقتربون . دعنا نهرب .

وقال احمد : لا بد انهم يدمرون مخازن الذخيرة . لا تخف لقد انتهت الحرب . عد الى النوم .

حملت الريح رائحة غبار مضمخ برائحة الحرب . ومن بعيد ظهر الافق جسدا باهتا مسجى فوق صدر الصحراء .

داهم الحزن نفس احمد الهلال فاحس بوحدته في هذا العالم الخاوي الذي بدأ يتحلل وينهار على مهل . هبطت عليه سكينة : كنا جماعة وها نحن الان اثنان وفي النهار القادم ربما صرت وحيدا يا احمد الهلال العوض الشوباش .

كم كان فاجعا للروح هذا الذي حدث .

ـ ٩ ـ

في منتصف الليل ايقظ رفيقه . كانت النجوم تلمع في سماء صامتة . من السهل السير تحت ضوء النجوم . تناول القميص المنشور فوق الصخرة . كان مبللا بالندى الممزوج بالعرق . تلجلج الاخر : عطشان . اين الماء ؟

طوى القميص ثلاث او اربع طيات وبدأ يعصره في فم الرجل . كان الرجل يلعق قطرات الماء ممتصا حواف القميص المدلى فوق فمه . وفجأة اختطف القميص وراح يعضه بوحشية ويسحب ماءه القليل بين شدقيه ، وبعد ان اعتصره قطعة قطعة ردّه فوق وجهه ماسحا به صدغه ورقبته ووجنتيه . انتعش . تنفس بعمق وارتياح ولمعت عيناه الرطبتان في الظلام .

ـ كيف ترى نفسك الان ؟

وقال الاخر : بدأت اشعر بالحياة . انني مدين لك بحياتي .

ـ انت قوي .

ـ لست ادري كيف ساكافئك . لم اكن اصدق انني ساعود الى الحياة مرة اخرى .

ـ تستطيع ان تسير الان ؟

ـ الى اين ؟

ـ وجهتنا القبيلة . ربما وصلنا مع الفجر .

ونهضا . سارا تحت النجوم في سحر رطب وسكينة استرخت بعد يوم عاصف .

ـ هل تعتقد اننا نجونا ؟

في جيب احمد كانت هناك بقايا تبغ معروقة ملتوية . اعطى رفيقه لفافة . ونفثا الدخان بغبطة رجلين خارجين من حالة موت . كانا يسيران ببطء فوق الرمال الطرية : اعتقد اننا اجتزنا منطقة الخطر . كان الاخر اقل تعبا لكن خوفه لم يبارحه . وتحدث مع احمد عن حلم مشوش ، لا يذكر منه غير تابوت اخضر رآه يطير فوق الصحراء ، وعلى خشب التابوت عصافير عارية زرقاء تشبه لون الشمس وهي تغرب . ثم تهب ريح شديدة وغبار فيختفي التابوت والعصافير .

وساله عن معنى الحلم فقال احمد الهلال : كان هذا من تاثير العطش عليك .

فكر احمد بالقبيلة . قبيلته التي انحدر منها قبل ان يهبط المدينة: اهي هناك ما تزال ام انها رحلت مع الذين زلزلهم الوقت بصيحته المفاجئة ! ولكن كيف تلقاه هو العاق الذي قتل اباه وفر في ليلة حالكة يهيم وحيدا ملعونا عبر الصحارى .

واذ تقدما عميقا في الصحراء ، ساله الاخر عن القبيلة . وراح احمد الهلال العوض الشوباش يحكي عن الجد الاول الذي نجا من معركة النهروان ومعه سيفه وحصانه ضاربا في اعماق الصحراء ، وكيف آوى وحيدا الى كهف في سفح احد الجبال يصطاد الحيوانات والوعول ياكل لحومها ويرتدي جلودها ، ثم روى كيف اشتاق ذات مساء الى امرأة خطفها من مضارب البدو نام معها فولدت له بنات وبنين تزوجوا وعمروا المكان .

ومع الزمن ازدادت السلالة . كانت سلالة غريبة لا ديانة لها ولا آلهة غير الريح والشمس والمطر والرعد ، علمتها تحولات الطبيعة اشياء كثيرة خارجة عن طقوس البشر المحيطين بها . من الريح اخذت الرسوخ وبناء منازل في الصخر ومن الشمس تعلمت غرس الاشجار والكشف عن الينابيع وعلمها المطر كيف تحرث الارض وتزرعها ، واعطاها الرعد قوة ضارية تواجه بها الغضب والفوضى والغارات المفاجئة .

ربما لم تسمع ، يوما بهذه القبيلة الخارجة ولا تعرف مكانها ،وربما تقول انني اهذي او احلم . لكنها هناك قائمة في الطرف الاقصى من الصحراء ، وانا منها ولسوف تراها يوما اذ يأتي اوان خروجها . هي من الاعراب وليست منهم . قبيلة الشوباش التي ستملأ الارض يوما بالعدل بعد ان ملئت بالجور والطغيان ، والتي تعرف كيف تحارب ولا تنهزم . لانها تعرف كيف ولماذا ومتى تبدأ الحرب . انها الان تنمو نمو الجذور في اعماق الارض . تبني اسسها فوق الصخر . تحرث وتزرع

بداب . تقف على مشارف اراضيها النامية بالقمح والشجر والضوء وتحدق بعيدا بعيدا نحو جميع الجهات . لا احد يكدب لا احد يخون . المرأة والرجل معا في الحقول . معا في الساحات . معا في المدرسة . ثمه وقت للخمر والفرح واللذة ، وثمة وقت للعمل . لا احد يملك شيئا في القبيلة : الاسلحة والاراضي والمواشي ملك الناس جميعا . يدير القبيلة مجلس من القوم يجدد كل عام . يختبر الرجل بالمرأة والعمل والخمر والصيد واختراع شيء جديد . بيوتهم لا تغلق في الليالي وقليلا من الحزن يعرفون وبلا اية احتفالات يدفنون موتاهم . وفي اوقات فراغهم يرسمون وينحتون ويغنون ويزرعون الازهار . قوانينهم لا تعرف السجون او الاعدام والذي يقتل ينحر تكفيرا عن خطئه او يهجر القبيلة. هذه القبيلة هي ما تبقى من الامل في حياتنا .

كان الاخر يستمع مدهوشا . بينما احمد العوض الشوباش يسترسل في حديثه الغريب الغامض . لقد بدا خلال الحديث مأخوذا كأنه في غيبوبة . اكتسى وجهه حالة من الفرح والغضب والتأثر . وكان صوته يرتفع وينخفض بايقاعات يفين راسخ شبه مطلق . ومن عينيه شعت نيران بدت وكأنها تثير دروب الصحراء المجهولة . كانت تلك النيران نضيئه وتغمره بقوة خارقة انسته كل التعب والجوع والظمأ ولفح الصحراء .

لقد تحدث احمد الهلال العوض الشوباش أخيرا . كشف عن سره العميق في هذا الليل انصامت الخالي من كل ضوء غير ضوء النجوم البعيدة . حدد مواقع القبيلة وشرح هواجسها وخطوات عملها وعندما سأله رفيقه : هل تعتقد اننا سنصلها ؟ هز رأسه : ستصل انت. سأعطيك علامة يعرفونك من خلالها . لن اتركك حتى تصبح على مشارفها . انا لا استطيع الدخول .

كانا الان على ابواب الفجر خففت رطوبة الصباح المقترب ، مرارة العطش ومشقة المصير . لم يكن يسمع في طيف الفجر غير خشب الخطوات الوئيدة فوق الرمل . اية رحلة غريبة في اعماق هذا المد الصحراوي ، بعد ان انكسرت الاشياء انكسار شجر جاءته الصاعقة فهوى تحت القصف دونما مقاومة .

واعطاه الوقت الندي بعض الغبطة . فصار بالامكان تركيز الافكار ورؤيتها بشيء من الوضوح . كان واضحا اكثر من اي شيء ان حياة برمتها قد تقوضت الان ، وان حياة اخرى لا بد ان تبني فوق هذه الانقاض . ينبغي ان تبدأ دورة الوقت بالانعطاف نحو الامام هذه المرة . سقط الماضي والحاضر . الزمن الذي كان متوقفا او ملتفا حول نفسه وبدأ زمن القبيلة . زمن الريح والرعد والمطر والموسيقى والعمل والخروج . الزمن القادم .

كانا يصعدان تلالا كساها بعض العشب ، ورأى احمد الهلال نيزكا يخترق السماء كرمح مضيء لم يلبث ان خبا . وشعر برعدة خفية وهو يرى النيزك الذي اخترق الارض واحترق . وسأل رفيقه اذا كان قد شاهد الشهاب المومض وقال له :

اتعتقد انه نذير شؤم ؟ واكتفى احمد بكلمة : احيانا تبدو حياة الانسان كهذا النيزك .

عندما وصلا الى اعلى التلال فاجأهما مشهد مدهش . على مد البصر بدت سهول خضراء كأنها مروج من الحرير المتموج . بحار ممدودة من القمح والعشب . خضراء .. خضراء تفيض بالبهاء والالق وامواج الريح . نظرا الى بعضهما . شعر كل منهما انه يخضر ويمتلىء بالنسوغ والعصارة والانبهار . لم يكتم احمد الهلال العوض الشوباش صيحته : ارض القبيلة الخضراء . هاي .. هاي ..

كالنمر اندفع باتجاه المروج . طوق سنابل القمح وقبلها . واستلقى على العشب يتشممه ويمرغ وجهه في ثناياه الطرية . حفن من الارض حفنة من التراب فردها فوق راحتيه ثم مسح بها صدغه ووجنتيه . كان للعشب والقمح والتراب رائحة عبقة تنفذ حتى مستقر الروح . لم يتمالك وهو يشم الرائحة . انخرط في بكاء حارق . امتزجت دموعه بالتراب والعشب . لم يكن يعرف ان كان يبكي ام يغني .

من الشرق جاء الصباح . انبثق يانعا نديا . كان فجرا جديدا مدهشا اضاء السهول انخضر وروح احمد الهلال العوض الشوباش الملقى وحيدا هناك في اعماق الظلمة .

- ١٠ -

عندما افتادوه من اعماق الارض المظلمة الرطبة ، لم يكن في حالة واعيه . كان ما يزال في حالة غياب . كم بدا الكابوس طويلا ثقيلا وهو رازح تحت تأثيره . لم يكن يعرف من هو ولا اين يكون ولا ماذا يريدون منه . كان يتدحرج بين ايديهم . واذ خرجوا به الى النور احس بصدمه الضوء . بوغت بعالم غريب . في غرفه خاصة رأى رجالا في ثياب رسمية انيقة نادوه باسمه فلم يجب ، وسألوه عن اسمه الحقيقي فابتسم ببلاهة ودهشة طفل . وسمعهم يقولون حدثنا عن احلامك بعد الحرب ولماذا كنت تتشرد في الشوارع وتضرب الحجارة على الجدران وتتحدث الى الاشجار والمارة . ثم طرحوا اسئلة حول الموسيقى والصحراء والبحر والمطر والرعد . وما معنى عبارة : انتهى الوقت المليت وجاء الوقت الحي ومعنى كلمة : للحياة وجهان : وجه الطفل ووجه الوحش وفي الزمن الميت يظهر الوجه الثاني . احذروا الوجه الثاني فتحت جلده مديه للذبح . كانت الاسئلة تلقى فتصطدم باذنيه ، لكنها لم تكن تستقر في نسيج ادراكه . واخذ يصارع في داخله ، للعودة الى حالة التوازن والتلقي الطبيعي ليرى ويسمع جيدا ليتذكر من هو وكيف زج به في هذا العالم الغريب ، ثم ليتعرف على هؤلاء الغرباء الذين يواجهونه ويطرحون عليه اسئلة لا يستطيع الاجابة عليها .

لم يكن المحققون يعترفون بحالته . كانوا يطرحون الاسئلة ويطلبون الاجابة . وعندما جابههم بالصمت اتهموه بالتهرب من الاجوبة . طلب ان يعطى استراحة واعدا ان يجيب عن اسئلتهم لانه مصدوع ولما يعتد النور بعد .

بعد استشارة سمحوا له باستراحة قصيرة . اقتيد الى غرفة خاصة ثم أرتج عليه .

في الغرفة حاول ان يتذكر . كان بين الوجوه التي رآها في قاعة التحقيق رجل يعرفه . لا بد انه رآه في مكان ما . على ناصية الشارع او على شاطيء بحر او في صحراء . جاهد كي يخرج من حالته من تأثير الكوابيس التي اعترته وهو مرمي في الظلام في قاع الارض . وسأل نفسه ان كانت محض رؤى ام انها وقعت فعلا في مكان وزمان محددين. وضغط صدغه ماسحا بكفه على عينيه محاولا ازاحة هذه الغشاوة المفاجئة التي اعترضته . وهو مغمض العينين عادت المدينة والبحر والصحراء ترتسم مرة اخرى ، وتذكر فجأة ان رجلا غريبا اخذه عندما كان مستلقيا على ناصية الشارع ، وجهد ليتذكر ، لماذا اقتاده . لقد عبر به الرجل الغريب ازقة مظلمة وكان الرجل الغريب يتحاشى النظر اليه . وسأله : الى اين يأخذه ؟ ورد الغريب انه يقود به الى بيته لانه مخمور . لكنه اخبره انه بلا بيت ثم اضاف بان بيته دمرته الحرب . وتذكر صرخة الغريب : الى متى ستظل تهجس بالحرب اما كفاك ما فعلت؟ وسأل الغريب في اي وقت نحن ؟ ورد عليه الغريب بنزق : مجنون . انت مجنون . وقال : لا . لست مجنونا . انني أسأل عن الوقت . وقال الغريب : بل انت مجنون ومحرّض . ماذا يعني كلامك عن الحرب والحرب قد انتهت وسأل : هل انتهت الحرب فعلا ؟ وصمت الغريب . كذلك تذكر انهما عبرا حيا قديما . وفجأة قدمت سيارة . اشار الغريب اشارة خاصة فوقفت السيارة ، ولما استدار الغريب ليدفع به داخلها لمح وجهه على ضوئها . أصابته رعدة وهو يتذكر الوجه الذي عرفه الان . كان الغريب هو رجل القاعة وصديق البحر والصحراء .

وضغط على صدغه وهو يحرك رأسه منتفضا : هل كانت معركة البحر ومسيرة الصحراء حلما ام لا ؟

وفجاة سمع صوت المفتاح ثم ظهر جنديان مدججان ، اقتاداه وعبرا به رواقا ، ثم انعطفا به نحو دهليز منخفض ، وامتدت الدهاليز والاروقة بين انصمت وصلابة جدران باهتة توحي بالفزع والموت . كان الجنديان يمسكانه من ذراعيه بقوة واصابعهما تنغرس في لحمه . كم رغب ان يتحرر من قبضتيهما ليسير بهدوء ودعة بينهما دون ان تخطر في نفسه فكرة الهرب او النجاة . كانت الدهاليز والاروقة تنعطف نحو الاسفل لتنتهي الى رواق طويل معتم ، في نهايته انتصب باب من الفولاذ ، فتحه احد الجنديين فصدر منه أزيز اصم جارح ، وظهرت من الباب ساحة واذ دفعه احد الجنديين من الباب الحديدي ، واجهته الساحة بجدرانها الاسمنتية العالية . كانت دائرية في صدرها مسرح عليه منصة ومقاعد ، وفي المواجهة صفت مقاعد خالية . انها هنا جاثمة بثقلها الاسمنتي الفاسي يكتنفها الغموض وعدم الانفة ، تحتويه داخل جدرانها الصلبة القديمة لقد بدت كحفرة واسعة منظمة في قاع الارض ، فطع بينها وبين السطح الاخر للارض كل اسباب الحياة والضوء .

اجلسه الجنديان على احد المقاعد الامامية فاحس ببعض الراحة . رأى الساحة مفتوحة من الاعلى على سماء ظهرت فيها نجوم ، كانت وحدها توحي بالالفة وبعض الامان . هبط بصره نحو السور المطوق للساحة فرأى أشباح جنود مسلحين كانوا هناك منتشرين على حوافي الجدران بنادقهم في ايديهم . ثابتين كالتماثيل في وضع متاهب .

موجة انقباض تصعد من الاعماق . شيء ثقيل يضغط اضلاعه يكاد يمنعه من التنفس كما ينبغي . لم يكن هناك هواء . روائح قابضة : شيء ما ملوث . بدا الزمن متوقفا أو هو يدور حول نفسه بحركة لولبية تنحدر . شعر انه موثق بكتل من الاسمنت وجسده يغوص في اعماق بحر : كن جذرا من وجه البحر الاخر . ولكن من اين جاء الذين سقطوا في اعماق البحر ؟

هل قذفهم الموج فعادوا احياء ؟ لقد رآهم هناك يغوصون في اللجج العميقة ويستقرون في القاع . ها هم هنا مرة اخرى ولا بد انهم يطوفون المدينة الان . يملؤونها من جديد . ولا بد انهم هم الذين جاؤوا به الى هذا المكان . كان حلما اذن كل ما هجست به النفس . شق من شقوق الارض يضغط . يخنق زهرة في طور الانبثاق . هل كان عبثا كل ما فعله ؟ مرة اخرى يعود الزمن الميت . الزمن اللولبي المنحدر: زمن الرصاص والجنود والموت . ولكن متى يقبل الزمن الحي ؟ زمن القبيلة الاخضر . اين القبيلة الان وهل وجدت حقا ؟ لا . لم تكن وهما. انها هناك في الاعماق . في الطرف الاقصى من الصحراء . اسسها في الصخر . اراضيها خضراء واسلحتها تسن بحجر البرق والرعد . تنتظر زمان خروجها . الزمان القادم .

حاول ان يتأكد من الوضع الجديد الذي هوى فيه . أرجع رأسه يمينا وشمالا وفتح عينيه حتى الاقصى . هل هو حزين ؟ هل هو متألم ؟ في اية نقطة يقف ؟ وما اسم هذه الحالة ؟ كان كبحيرة راكدة . تصطدم الاشياء بسطحها . ترجها لكن لا تعكرها . كان على حافة جرف مهدد بالانهيار . ورأى اناسا يقبلون ويجلسون على المقاعد .

كم بدوا غرباء ومتجهمين . لقد احدثوا بعض الجلبة ، ثم فجاة خيمت سكينة كسكينة المقابر .

نودي عليه فلم يتحرك وأقبل جنديان اقتاداه من مقعده وأوقفاه قرب المنصة .

كانت الساحة شبه مضاءة لكن غشاوة شفيفة كانت تريه الاشياء كالاشباح . احس بالصقيع تحت جلده وبالتعب فشعر برغبة حارة في النوم . وسمع همهمات مبهمة وكلمات واسئلة . وتحولت الاسئلة الى اتهامات غريبه حول الفوضى والتحريض والمرض والعصاب وحالات الفصام . كان الذي يتهم يرفع صوته ثم يتنسج وهو يتحدث عن القبيلة المعادية والعرق الخارجي الذي ينبض منذ آلاف الاعوام . وسمعه يقول: أن عبدالله بن انس ليس وحده ، ورغم انه يبدو مصابا بفوضى الدم الا ان هذه الفوضى منظمه وذات أهداف بعيدة المدى . ان قطع الصلة بين الماضي والحاضر وظاهرة الاحتجاج الشخصي ليست مسألة استثنائية ان هذا الانسان الذي يبدو مختلا ليس محايدا وليس وحيدا . لقد تحدث في الشوارع والمقاهي والمعامل والخمارات والمدارس والحقول عن أمور خطيرة . عن استمرارية الحرب . وقد سماها بحرب الطبقات . اجل ذلك ما قاله بالحرف . وقال أكثر من ذلك اسمعوا كلماته جيدا « ان هؤلاء (ويعنينا نحن) اشد عداوة لشعبهم من الاعداء الخارجين ولا بد من القتال ضدهم أولا . المعركة هنا وليست هناك الان . لا بد من قهر سلطة الجنود الفاشية اولا » .

كان أحمد العوض الشوباش يستمع . الشيء الذي اراد الاعتراض عليه هو : اسمه . واذ فكر بان جميع الاشياء قد سقطت على جدران هذه الساحة سقوط طائر اصطدم بشرك ، أدرك بان لا قيمة لتغيير الأسماء . في اول من ثانية لمعت فكرة بطلان الانسان والحياة والمعاني لكنها ما لبثت ان فرت ملتصقة بالجدران ووجوه وعيون الاشباح التي تلمع منتظرة هناك في الاعلى .

دفع المحقق سيلا جديدا من الاسئلة حول الولادة وقتل الاب وطلاق الزوجة والتوجه نحو القبيلة ، ولما لم يتلق عليها اي جواب ركز على سؤال طلب الاجابة عليه بالحاح : انني اسالك سؤالا محددا عليك ان تجيب عليه وحده بتركيز : هل كنت تنادي بضرورة استمرار الحرب وهل سميتها حرب الطبقات . أجب بنعم او لا ؟

رأى احمد الهلال العوض الشوباش سمة الجد والصرامة والتهيوء في وجه الرجل الذي يسأل ، كما بدت ملامح التهيب والصمت المنذر على وجوه الاخرين وداهمته رغبة عميقة في الضحك بأعلى ما يستطيع . ان يطلق قهقهات عالية . عالية من هذه الطقوس ورغم ان السائل كان يعتقد بانه دفع باحمد نحو المصيدة ، الا ان هذا الذي يبدو متهما ، كان في اقصى حالات الاعياء النفسي . لقد كان يرغب ان ينام ويستريح فقط .

من اجل هذا تجاهل السؤال واكتفى بحك صدغه واغماض جفنيه ، وعندما اعاد المحقق السؤال بحنق ملحا على الاجابة ، فتح احمد جفنيه ببطء ثقيل .

وبهدوء طلب كرسيا فجاؤوه بكرسي . جلس ثم رفع كفه واسند عليه رأسه ولم يقل شيئا .

انتفض المحقق مصعقا : ان لم تجب ستموت .

انذاك تذكر على نحو مركز انه امام قضاة ، وان حياته قد تنتهي هنا . كما مرت خطفا ذكرى البحر والصحراء والدوي والعطش والتعب واخيرا الموت : الانسان في النهاية يموت اذن ! يموت او ينام ما الفرق؟

ما عاد يبالي بكل هذه المهابة والطقس الذي يجهد لكي يبدو مروعا. لقد بدأت الاصوات والايماءات تتحلل متحولة الى نوع من الرنيـــن المصدي . تصطدم باشياء صلبة ثم ترتد الى مراكزها . كانت تشبـــه هدير امواج البحر ابان العاصفة . وفجأة نودي على الشاهد . تقدم بثقة وثبات . اعتلى المنصة بحركة مسرحية . وبدأ يتحدث . ورآه . حرك احمد جفنيه مزيحا ثقل التعب والنعوم . عرفه . باعتزاز راسخ كان الشاهد يدلي باعترافاته واحدة تلو الاخرى دون ان ترتعش في جسده عضلة غير لسانه . شيء واحد كان يتحاشاه وهو يروي حادثة البحر والصحراء والوصول الى تخوم القبيلة هو النظر الى عيني المتهم .

عندما ادلى الشاهد بكل ما يعرف واتهم القبيلة واحمد بانهـــا سلالة خائنة خارجة ومعادية للدولة كانت تعمل في الخفاء وتحرض على استمرار الحرب وتجهز نفسها للاستيلاء على السلطة ، انتبه احمد . احس رمحا يخترقه في الظهر وبأن رأس الرمح قد وصل حافة القلب .

خلال لحظة تشبه ومضة في ظلام ، عاد صاحيا . استعاد قوته وطاقته واندفع الدم حارا في اعصابه . احس صدغه يلتهب . وبدأت نيران لا مرئية تتوهج وتتدافع في مجموع جسده . كانت رغبة النـوم عبر تلك الايماضة المشعة قد تنحت وحلت محلها رغبة نارية متوحشة : ان يقتل هذا الرجل .

لم يكن باستطاعته أن ينهض الان . اختفت الرغبة وبدأت النيران تخمد . اعياء شديد انتشر مرة اخرى في الجسد . واكثر من اي وقت مضى كان وحيدا لا يستطيع ان يفعل شيئا . نظر حوله . كانوا هنـــا وهناك في كل مكان . عيونهم صابة اشعتها تتوهج شفرة بيضاء حادة . كانت تلك الاشعة منصبة عليه الان . واحس بتلك القوة الغريبة الصادرة عن الاشعة وهي تجذبه نحو محرقها . لقد كان جاهزا تماما .

بهدوء متعب نظر الى الاسوار العالية . كان الجنود هناك في حالة استعداد ينتظرون خلو الساحة وبدء الاشارة .

عندما خلت الساحة بقي وحده للحظة ، ثم فجأة فتحت ابواب مغلقة اندفع منها رجال موثقون . كانوا الان معه وسط الساحة . لقد بدوا بعد ان سطعت الانوار عليهم منتصبين كالشجر. كانوا هناك بجباههم المضاءة وعيونهم المشعة بايماضات سرية ثابتين . ابصارهم وصدورهم مشدودة بقوة غريبة نحو الجنود المتأهبين . كان الصمت يغطي الساحة الان بجلال بهيج ، بافتتان مدهش لا حدود له . كانوا الان وقوفا فوق الضفة الخضراء على اتم استعداد دونما جلبة بانتظار المطر .

وكما تتتالى موجات من الرعد المتواصل ، هكذا اقبل البحر طاغيا مجتاحا وسط ظلام اضيء بنجوم من دم .

الجزائر — حيدر حيدر

دار الآداب تقـــدم

ماريو بوزو

رواية

العرّاب

The Godfather

« العرّاب » The Godfather هو الرواية التـي سجلت منذ صدورها في السنة الماضية اكبر رقم في التوزيع عرفته اية رواية عالمية حتى اليوم . فهي مـا تزال تباع بالملايين في جميع انحاء العالم بعد ان ترجمت الى معظم اللغات . وقد اقتبس منها حديثا فيلم ضخم يعرض الآن في كثير من دور السينما في العالم ويشهد اقبالا فاق الاقبال على أشهر فيلمين عالميين هما « ذهب مع الريح » و « صوت الموسيقى » .

ولكن من يقرأ الرواية يلمس الفرق الكبير بينهـا وبين الفيلم الذي يمكن اعتباره صورة مشوهة عنها . لأن الرواية التي كتبها ماريو بوزو اجمل وأغنى بالاحداث وأعمق بالتحليل من الفيلم . وبالرغم من ان هذه الرواية تشد القارىء اليها وتتركه مذهولا ، فانها تعطي أصدق صورة لتحلل المجتمع الاميركي الذي يخضع ، حتى أعلى مستوى فيه ، لنفوذ عصابات « المافيـــا » ، هـــذه العصابات التي يمثل دون كورليون « العراب » رأسا من رؤوسها الخطيرة ويمثل اولاده فيهـا ادوار القتـــل والاجرام والجنس والوحشية ...

ان « العرّاب » ادانة للمجتمع الاميركي وللاجرام الراسمالي الذي يقوم عليه والذي يخلق هذه الطبقة من « المافيا » ذات النفوذ الخطيـر الممتـد الى النقابـات ومجلس الشيوخ وسائر السلطات التي تشد خيـوط الحياة الاميركية .

وبراعة المؤلف تقوم على تصوير الجريمة تحت مظهر الاحترام والوقار . ووراء عنـوان « العـرّاب » البريء ، يجد القارىء خمسمئة صفحـــة محشـــوة بالديناميت ...

الثمن ٨٥٠ ق. ل — صدر حديثا